

وسائل النجاح في المجتمع أو

ثمن الفضيلة !!!

بقلم الأستاذ سيد قطب

منذ سنوات قرأت كلاما متقولاً عن مجلة "أميريكان مجازين" لشاب أمريكي مراهق خلاصته : " أن ما يسمونه الاستقامة والأمانة والنزاهة والشرف صفات ليست ضرورية للنجاح في الحياة العملية ؛ وأن ما هو ضدها من الصفات أدعى إلى الكسب والفلاح " .

وفي سنة ١٩٣٦ أقيمت مسابقة أدبية كان فيها موضوع عن "وسائل النجاح في القرن العشرين" وقد دامت أن من بين بعض الرسائل التي قدمت في هذه المسابقة رسالة ترجع "وسائل النجاح" إلى إجادة التفاف الاجتماعي !

لست أدري لم لا أستطيع دائماً الموافقة على مثل هذه الآراء ؛ ولو كانت الوقائع العملية تؤيدها في بعض الأزمان ، وبعض الأحوال . وإنه ليصعب عليّ أن أصدق أن هذه قاعدة صحيحة للحياة ؛ وأقضى ما أسلم به أنها قد تصلح في فترات الاضطراب .

وإنه لمن حسن الحظ أن هذا الاضطراب لا يستطيع القضاء نهائياً على الإيمان بالفضائل الانسانية التي تعبت البشرية في إنشائها والاحتفاظ بها بعد تضحيات مستمرة ، وأن "دكتور جيكل" (١) لا يزال قابعا وراء "مستر هايد" حتى في أشد الأزمات وأعنف الاضطرابات .

هذا الشاب الأمريكي يبحث عن ثمن الفضيلة فلا يجده ، أو يجد لها ثمناً بخساً في السوق لا يساوي ما ينفقه الرجل الفاضل في الاحتفاظ بها ، وصاحب رسالة المسابقة يرى التفاف هو أساس النجاح العملي في القرن العشرين ، وما هذا وذلك إلا ثمرة اضطراب وقتي في نظام الاجتماع .

وكثيراً ما يقع أن يبحث الناس عن "ثمن الفضيلة" حينما تهبط بالفعل درجة حرارة الفضيلة في النفوس ، أما قبل ذلك فهم لا ينظرون إليها من وجهة الربح والخسارة ولا يقومونها بعملية السوق .

(١) كناية عن تفوق الخير والشر بالإشارة إلى الرواية السينمائية المعروفة "دكتور جيكل ومستر هايد" وقد مرضت

ولكن هل الواقع أن الفضيلة لا قيمة لها في هذه الحياة ، وأن الرذيلة أجدى وأنفع ، وأن المبادئ القويمية إنما هي أوهام وخيالات لا تقوى على الواقع ؟

يقول لنا هذا الشاب الأمريكي : "إن والديّ مستقيمان أشد الاستقامة ، ولكن والدي ظل فقيرا يكدح طول حياته ، وظلت أمي محرومة من المتع الدنيوية ، بينما جارنا الذي لم يتبع مبادئ الشرف والتزاهة قد أثرى وزوجته وأولاده يعيشون في نعيم " .

ثم يقول عن والده : "إن السواد الأعظم في بلدنا يكرهونه لأنه منذ بضع سنوات قال الحقيقة عن بعض الوجهاء ولم يكن منافقا . وكثيرا ما سمعت الناس يقولون عن والدي إنه غشاش وجشع ، بينما لم أسمع إلا قليلا من هذه الصفات عن جارنا الذي لا شك في أن هذا الوصف ينطبق عليه بشدة ! " .

وزيد نحن أن نقول : إن الفضيلة غاية وليست وسيلة ، وأن أول غاظة يرتكبها هذا الشاب وأمثاله أن يفهموا أنها وسيلة فينتظروا غايتها ، وقد لا يجحدونها في كثير من الأحيان .

والذي يدل على أنها غاية من غايات الحياة الكبرى ، وأنها جمال روحاني مقصود لذاته أن الحياة تضحي الضحايا الكثيرة لتصل إلى ذلك الجمال ، على نفس النسق الذي تتنزه الطبيعة للتضحية بالملايين من الأحياء لتصل إلى جمال الأجسام !

فالفكر الذي هو وليد التجارب لا يمكن أن يوحى بتضحية واحدة من التضحيات النبيلة التي يقدمها الأبطال في سبيل نصرة المبادئ الفاضلة والمثل العليا . وما كان أحرى هذا الفكر أن يهدي صاحبه إلى طريق السلامة دائما وينأى به عن التضحية التي لا يعود ثمنها عليه في الحياة !

لا بد إذن من قوة أخرى غير قوة الفكر تدفع للتضحية في سبيل مثل أعلى ، ولنسم هذه القوة الروح أو الضمير أو الإلهام . فلن تغير الأسماء شيئا من الواقع ، وهو أن الإنسانية تبذل الضحايا على رغم أنف الفكر الإنساني المحدود ، ثمنا للفضيلة وللثالية ، مما يدل على أن الفضيلة غاية في نظر الحياة لا وسيلة من وسائل المنفعة القريبة ، وأنها لا تعرضها في السوق لتنال بها دراهم معدودة !

ثم نعود إلى "منفعة" الفضيلة و "منفعة" الرذيلة ، وإن كانت نظرية المنفعة لا تفسر لنا المسألة كما تقدم ، لأن المنفعة "ضرورة" وقيد ، والفضيلة "حرية" وانطلاق ، ولذة ذاتية للحياة . نعود لتجارى أصحاح مذهب "المنفعة" وهم كثيرون جدا لسوء الحظ في هذا

الطور من حياتنا ، ويزيدهم كل يوم كثرة المثل السيئة التي يجدونها في كل نواحي الحياة ،
المثل العارخة على مكافأة الرذيلة بالنفع والتقدم والجاه ، ومكافأة الفضيلة بالحرمان والتخلف
والمحول !

الذين يفرضون أن الرذيلة "تنفع" ، وأنها أقرب طريق للوصول إلى المال والسلطة ،
والجاه لا يفرضون أنها ستكون نظاما عاما لهذا العالم ، ولا يتصورون الناس جميعا وهم
معتقون لهذا المبدأ ، وإلا انتفت المنفعة وأصبحت مستحيلة .

ولنفرض أن كل الناس لصوص ، فكيف ينتفع كل منهم بلصوصيته ؟ أو محتالون
فكيف ينتفع كل فرد منهم باحتياله ؟ ألا يفد كل منهم عاجزا لإراء الأثر الذي يحاربه
بنفس سلاحه .

ماذا يفيد لص من لص ، أو محتال من محتال ، أو منافق من منافق ؟

والعمل لا يكون صالحا للأخذ به حتى يكون نظاما صالحا لأن يعمل به الجميع ، ونظام
الرذيلة "تدنى" "مفغته" عن كل فرد ، متى أصبح عاما لكل فرد ، ولا تتحقق المنفعة فيه ،
إلا حين تكون الفضيلة هي النظام العام ، والرذيلة هي الاستثناء من هذا النظام ، فعندئذ
يكثر الاطمئنان والغفلات ، وينال الأشرار ما لم يكونوا يتألونه أو أن الجميع أشرار !

وهذا وحده يكفي لحسبان الفضيلة أصلا لنظام الحياة والمجتمع لا يصلحان بسواه .
أما أن بعض الناس يتألون بخروجهم عن حدود الاستقامة ما لا يناله الآخرون بمسكهم بها
فقد يكون صحيحا في بعض الأحيان . ولكنه لا ينهض دليلا حاسما على صلاح هذه النظرية
بصفة عامة .

على أنها ليست قاعدة في أى زمان أن ينجح كل شرير ، وأن يخفق كل مستقيم .
وربما كانت الأمثلة الصارخة وحدها هي التي تهيئ لنا ذلك . ولكتنا لو قدما بإحصاء عام
فربما كان نصيب الاستقامة من النجاح أكبر . وإن كانت بعض عهود النكسة تضعف
هذا اليقين في النفوس ، وتقتل الايمان بالمثل العليا ، وهي عهود محنة لا يقاس عليها !

أما راحة الضمير وعذابه ، وأما إثبات الشخصية وتضاؤلها فهي معان قلما ينتبه الناس
لها في مثل هذه الظروف . ولكننا نساها كلمة ينتفع بها من يريد : إن الضمير حقيقة واقعة
مهموسة لا غنى لعاقل عن الاعتراف بها ، ومهما بلغ من موت الضمير الفردى وانعدامه
في بعض الأحيان ، فإن الدليل على حيويته ووجوده هو الضمير العام . هو ضمير الشعوب
الذي قد تطول مغالته ، ويبدل ما يبذل للعداءه وغشه ، ولكنه يستيقظ فجأة بعد الخمود
ويعان وجوده على رغم كل مغالبة ، وينكر على الأفراد كل انحراف .

ان للشعوب أنوفا تشم من وراء الجدران ، وقد تزكها الراحة في أول الأمر ولكننا لا تلبث أن تفيق ، وأن تقوم بالمطاس كرد فعل للرائحة الكريهة ، وفي هذا ضمان كاف للفضيلة والفضلاء .



وبعد، فقد ورد في كلام الشاب الأمريكي ما هو جدير بالنظر من وجهة التربية المتزلية أو المدرسية فهو يقول :

”هاكم ما فهمته مما تعلمته في هذا الصدد في البيت والمدرسة :

أولا : ان الاستقامة جزاؤها جنة النعم .

ثانيا : أن الجميع يحبون الأمين المستقيم .

ثالثا : أن كل انسان يثق بالشخص الأمين التزيه .

رابعا : أن كل الناس تؤيد المستقيم وتعضده .

خامسا : أنه يجب على المرء أن يكون أمينا لينجح في عمله .

سادسا : أن الاستقامة تؤدي الى الاحترام والسعادة .

كنت من المؤمنين بهذا كله حتى بضع السنوات الأخيرة اذ بدأت أنظر إلى ما حولي وأنصوّر وقائع الحياة . والآن أصبحت لا أصدق كلمة واحدة من الأسباب الخمسة الأخيرة وأرى السبب الأول فوق ادراكى ! “

وهذا الاعتراف يلفت نظرنا إلى الخطر الكامن وراء تلقين التلاميذ أن الفضيلة ”نافعة“ في كل حالة من الحالات . حتى اذا خرجوا إلى الحياة وحاولوا تطبيق هذه التعاليم بحرفيتها اصطدوا ، وبالواقع ووجدوه لا يطابق ما تعلموا في البيت والمدرسة . فيترعزع يقينهم بالمثل الأعلى وإيمانهم بالفضيلة ، ويشكون في صدق كل ما كانوا قد تعلموه . وما أشد خطر هذا الشك في النهاية .

ولو أننا سلطنا في تعقيب الفضيلة الى التلاميذ طريقا أخرى غير طريق المنفعة، لكن ذلك أجدى ، ثم لو أننا تحقنا في تصوير القيمة العملية للفضائل ، وأوحينا للتلاميذ بفكرة التضحية وتحمل الآلام في سبيل المثل الأعلى لا للفائدة بل للذة ، لنشئوا وهم أثبت يقينا في المبادئ العالية ، مهما لقوا في سبيلها من آلام .

ولعل من الانصاف لهذا الشاب الأمريكي المتشكك المضطرب أن نشبه له فقرة من كلامه فيها تصوير لمواقع في كثير من الأحيان فهو يقول :

”وقد راقبت أمور الحياة وتعلمت كيف أكون نصابا محترما، وهذا أمر بسيط ويتسنى لكل امرئ أن يكون كذلك وكل ما ينبغي لذلك أن يستطيع المرء إخضاع الناس وأن يعطف عليهم وأن يوافقهم ويحاملهم وأن يقوم بين حين وآخر بعمل صالح مثل إرجاع محفظة مفقودة فيها مبلغ طيب أو التبرع بمبلغ لعمل خيري وأن يكون له عمل مشروع ظاهر ووراء هذا الستار يتسنى للمرء أن يأتي أي عمل آخر لاكتساب المال وإذا فضح أمره مرة فما عليه إلا أن يرفع عقيرته بالشكوى ويملا الفضاء صياحا وتبرما بظلم الإنسان وأنه برىء مضطهد فيرثى له الجميع ويعطفون عليه“.

هذا صحيح ، ولكن ما في كل مرة تسلم الجثة ، والبداية الإنسانية كثيرا ما تكشف هذه الأستار وتفضح المحبوء والدين . وضمير الجماعة كما قلت قد يمد ويتوارى ولكنه يعود للحياة والظهور لأن الحياة لا تصاح بغير فضيلة ، ولا تعيش بغير استقامة ، ولا تصبر طويلا على الخداع والغش والسقوط .

صيد قطب

حين نعرف المثل الأعلى لحرية الإنسان نعرف جوهر طبيعته ومعنى نفسه الحقيقي .
المنظرة الأولى ترينا أن حريته بأن يكون طليقا في نيل لذات النفس وعظمتها . ولكن التاريخ يؤكد غير ذلك : إن عظماءنا هم الذين عاشوا حياة تضحية النفس ، وإن الطبيعة العلوية في الإنسان تنشد شيئا أعظم منها وهو مع ذلك معناها العميق .
من كتاب السادهانا لتاجور